

أصالة العربية في نظرية عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية

بشير إبرير

قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة باجي مختار – عنابة

bachir-ibrir@yahoo.com

ملخص:

يدّعي بعضُ الدارسين للسانيات السبقَ العلمي إلى تأسيس نظرية لسانية عربية، ولكل منهم آراؤه وأهدافه. ولكن السؤال هو: ماهي النظرية بصفة عامة؟ والنظرية اللسانية بصفة خاصة؟ وماهي الشروط الواجب تحققها فيها لكي تكتسب قيمتها العلمية؟ وماهي التوجهات اللسانية التي تحققت فيها هذه الشروط؟

رأيت -بعد الدراسة- أنها تحققت في التوجه اللساني لعبد الرحمن الحاج صالح؛ من حيث: البعد الموضوعي والإبستمولوجي والمنهجي الإجرائي والوظيفي الاستثنائي. ومن حيث البعد المفهومي والمصطلحي.

ولذلك يمكن وصفه بالنظرية وعبد الرحمن الحاج صالح هو المؤسس الحقيقي للسانيات العربية.

الكلمات الدالة: أصالة – نظرية – عربية – عبد الرحمن الحاج صالح .

Abstract:

Some linguists claim scientific precedence in establishing an Arabic linguistic theory, and each of them has their own opinions and goals. However, there are many questions that could be revealed: What is the theory in general? What is linguistic theory in particular? What are the conditions to be met to acquire its scientific value? What are the linguistic currents in which these conditions are met?

The present study showed that those criteria about a linguistic theory were accomplished in the linguistic orientation of Abd al-Rahman al-Hajj Salah at different dimensions: the objective, epistemological, procedural and functional dimension, and the conceptual and terminological dimension. Therefore, it could be described as a theory and it could be said that Abd al-Rahman al-Hajj Salah is the real founder of Arabic linguistics

Keywords: Authenticity – Theory – Arabic - Abd al-Rahman al-Hajj Salah .

1- طرح الإشكال:

لوحظ في السنوات الأخيرة تسابق بعض الدارسين في اللسانيات إلى القول بتأسيس نظرية لسانية عربية.

منهم من رأى أن جهود السابقين عليه؛ إنما هي ركام فكري غير مفيد وغير مُجدٍ لتأسيس نظرية لسانية عربية. والغريب في الأمر أنه لم يطلع بكفاية على تجارب من سبقه من اللسانيين في الوطن العرب برمته؛ وإنما يتحدث في نطاق المكان الذي ينتمي إليه، ويتضخم لفظي واضح، ودون تحرّج علمي. ثم إنه لم يُضَمّن حديثه عن تأسيس النظرية مفهوماً علمياً لسانياً واحداً يميزه عن الآخرين، ويدعم ما يدعيه.

وكأنه -بهذا الصنيع- يريد الانطلاق من الصفر، ويتجه من المستقبل إلى المستقبل، وبخاصة أنه لم يشر إطلاقاً إلى المنظور الفكري الذي يصدر عنه.

ومنهم من أراد تأسيس النظرية اللسانية العربية على مقولات اللسانيين الغربيين، وهذا أمر لا يستقيم.

ومنهم من اكتشف كتباً ومؤلفات أخرى لدوسوسير، راح يقرأها ويعرّف بها ويوضح اختلافها عن كتابه المشهور: "محاضرات في اللسانيات العامة"، الذي ذاع صيته وشاع بين القراء والباحثين، وبنيت عليه كثير من الآراء في اللسانيات. وهذا جيد ومطلوب ولعله يقدم إضافة، ولكنه يبقى يخص دوسوسير وحده؛ ولا يمكن أن نؤسس عليه للسانيات العربية؛ لأن النظام اللغوي الذي اشتغل عليه دوسوسير مختلف عن النظام الخاص باللغة العربية. ولأن المرجعيات الفكرية هي أيضاً مختلفة.

ومنهم من لا يرى وجوداً للسانيات عربية، وأنّ اللسانيات بدأت مع دوسوسير وأتباعه، ويطلق مصطلح مفهوم نظرية باستسهال على كل دارس غربي في اللسانيات والنقد والأدب. ويتحفظ بل لا يقبل أن تطلق على العلماء والدارسين العرب في أي نوع من المعرفة، ومنها اللسانيات؛ من ذلك مثلاً: يطلقون على ما جاء به، بارت Barte عن النص: نظرية النص. ولكن يصفون ما جاء به عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز، بالتفكير والإرهاص الأولي المهمد، وقس على ذلك كثيراً من الأمثلة.

ينسى هؤلاء غالباً أنّ المنظورات الفكرية مختلفة، وكذلك المميزات المتعلقة بالبيئة الاجتماعية ليست واحدة ومع ذلك يبنون أحكامهم في ضوءها.

ولكل من هؤلاء الدارسين آراؤهم وتبريراتهم العلمية كما يصفونها أمام هذا الإشكال رأيت أنه من الممكن طرح

السؤال الآتي:

ما النظرية؟ ما مفهومها؟ ماهي جملة الشروط التي يجب أن تتوفر فيها لتكون لها قيمة علمية في مجال تخصصها؟ وفي التوجهات اللسانية توفرت فيه تلك الشروط؟ ومن يحق له التحدث عن النظرية؟ ماهي خصائصها ووظائفها؟

2- في مفهوم النظرية:

تعد النظرية مفهوما أساسيا في أي نوع من أنواع المعرفة يسعى لأن يكون علما. فيكون التفكير بتصورات النظرية ومفاهيمه التجريدية، والمصطلحات الدالة عليها والمعبرة عنها سندا نظريا لذلك.

والنظرية في مفهومها العام، عبارة عن رأي أو اجتهاد يقدمه باحث أو عالم في ميدان معرفي ما، يدعمه بالأدلة والحجج والبراهين اللازمة لذلك.

جاء في معجم المعاني أن النظرية: اسم والجمع نظريات والنظرية قضية تثبت صحتها بحجة ودليل أو برهان.

النظرية في الفلسفة طائفة من الآراء التي تفسر بعضها.

ونظرية المعرفة (الفلسفة والتصوف) البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الشخص والموضوع. أو بين العارف والمعروف.

ونظر الشيء/ ونظر إلى الشيء/ ونظر للشيء. أبصره وأدركه بواسطة القدرة البصرية.⁽¹⁾

وجاء في معجم أكسفورد Oxford أن:

1- نظرية مجموعة الأفكار والآراء المطروحة المتعلقة بموضوع معين.

2- مجموعة قوانين واقتراحات يرتبط بعضها ببعض وتخضع لاختبارات معينة تؤدي إلى استنباط حقيقة علمية.

(2)

وتعرف النظرية بأنها: «مجموعة من الفرضيات والتجارب والحقائق التي يتم استخدامها لتحقيق الإدراك الذهني عبر تفسير الظواهر المختلفة، كما تستخدم لفهم العلاقات بين مسببات الأمور وتأثيراتها على المحيط. إذ تشكل النظريات أساسا للتفكير العلمي الخاص بمحاولة شرح الأشياء المثبتة عبر عدد من المبادئ الأساسية».⁽³⁾

وتعني النظرية فيما تعنيه: التأمل والتصوير الذهني، والخطة التفسيرية المصحوبة بالممارسة العملية؛ فبدون

ممارسة لا تعد نظرية؛ وإنما النظرية ممارسة واعية مبنية على معرفة نظرية محددة.⁽⁴⁾

- ar.ar<<https://www.almany.com>1

- <<https://mawdoo3.com>2

- ينظر: <<https://mawdoo3.com>3

4- ينظر: رمون وليمز: الكلمات المفاتيح، ترجمة: نعيمة عثمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، المجلس الأعلى للثقافة والفنون في مصر، ط1، 2007، ص313، 314، 315.

والنظرية كما قال أندري لالاند A.Lalande 1972 «بناء ذهني تأملي، يربط النتائج بمبادئ معينة؛ وهي معارضة للتطبيق باعتبارها موضوع المعرفة المستقلة، وما تم بناؤه من تصورات منهجية».⁽⁵⁾

إنّ النظرية هي: «أن يسعى العلماء إلى إنشاء نظريات عامة بالنظر إلى ما توصلوا إلى إثباته من حقائق وقوانين ثابتة. وتشكل هذه النظريات نسقا (نظاما) من القضايا ومن التأويلات، ومن التصورات الذهنية المنسجمة منطقيا. تتعلق بمجال معين من مجالات الواقع (الطبيعة أو المجتمع) وتكون مصاغة صياغة تمكن من استنباط فرضيات عملية قابلة للتمحيص».⁽⁶⁾

وهكذا تكون النظرية صياغة لغوية لنسق من الأفكار والتصورات الذهنية المجردة، تشكلها مفاهيم وتعبر عنها مصطلحات قائمة على منهج محدد في الوصف والشرح والتفسير والتحليل والتأويل والاستنتاج.

وهي خلاصة لبحث ونظر عميقين في أصول المعرفة، ومبادئها ومنهجيات تشكلها، والسياقات العلمية والمعرفية التي أحاطت بها.

وهذا يعني أن الذي يضع النظرية علماء قليلون تتوفر فيهم شروط خاصة.

1-2- خصائص النظرية وشروطها:

تكتسب النظرية قيمتها العلمية من جملة من الخصائص والشروط التي يجب أن تتوفر فيها، نذكر منها:

- أنها تمثيلات Représentations عامة لتمثل نظري فكري محدد؛ أي تتضمن عددا من المسلمات والتعاريف الخاصة.
- أنها نسق من المفاهيم والقوانين المرتبطة بالظواهر المدرجة، ذات بعد إبستمولوجي خاص بها، وذات بعد منهجي في التفسير والتحليل والتأويل.
- ولها أيضا بعد وظيفي يتعلق بالممارسة العلمية، فلا بد للنظرية من تطبيقات.
- أنها تعكس جملة من الحقائق التجريبية.
- أنها تسمح باستنباط فرضيات جديدة.
- أنها تتصف بالعمومية والشمول.

5- ينظر: عبد الكريم غريب: المنهل التربوي، معجم موسوعي في المصطلحات والمفاهيم البيداغوجية والديداكتكية، والسيكولوجية، الجزء الثاني، ط1، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، 2006، ص 953.

6- ينظر: بشير إبرير وآخرين: مفاهيم التعليم بين التراث والدراسات اللسانية الحديثة، مطبوعات مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2009، ص 213.

ألا تتوقف عند تفسير الحوادث الماضية، بل لابد من تغطيتها للحوادث الحاضرة والمستقبلية.(7)

2-2- النظرية بين العلوم الأساسية والعلوم الإنسانية والاجتماعية:

يوجد فرق واضح في التعامل بين النظرية في العلوم الأساسية الصارمة، وبين العلوم الإنسانية والاجتماعية واللغة والأدب ومنها اللسانيات.

إن الجديد في العلوم الأساسية الصارمة يلغي القديم، ويبطل عمله. ولكن العكس هو الذي يحدث في العلوم الاجتماعية والإنسانية؛ فلا يتم الإلغاء والإبطال؛ وإنما يتشكل تراكم معرفي يفيد الدارسين والباحثين والقراء بوصفه ذاكرة معرفية تاريخية مؤسسية، فالمعرفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية تتراكم وبعضها يُبنى على بعض، والمعرفة الحاضرة تتأسس على السابقة، وتؤسس في الوقت نفسه، للمعرفة التي ستأتي بعدها. وهكذا لا يتم الإلغاء نهائياً. وإنما تتأسس النظريات بناء على الغوص العميق في التراكم المعرفي الثري الخصب بالتصورات والمفاهيم والأفكار، والاستفادة منها في الجديد الذي تبنيه وتشيده.

إن النتيجة النهائية للنظرية في هذا المجال، وليكن اللسانيات مثلاً، تكمن في تراكمها المعرفي، أو في موسوعتها المعرفية، وبخاصة في وجهها الإجرائي، والسر يكمن ثمة في التعدد والتجدد والتجاوز الذي يلحق النظريات والمناهج عبر تاريخها؛ فمن نظرية إلى أخرى ومن إجراء منهجي إلى آخر. وهكذا تتعدد النظريات اللسانية مثلاً، وتتجدد. تبعاً للتوجه الفكري الذي يصدر عنه الباحثون، ويؤطر خطاباتهم المختلفة؛ ومن حيث قاعدة المفاهيم المعرفية النظرية، ومن حيث الإجراءات التحليلية. ويبرز ذلك في الأجهزة الاصطلاحية الخاصة بمذهب أو مدرسة أو باحث لساني معين.

فإذا تحدثنا عن دوسوسير استعملنا مصطلحات محددة تدل على مفاهيم خاصة، مثلاً: الأنية والزمانية، اللسان والكلام، الشكل والمادة، الدال والمدلول، محور التركيب ومحور الاختيار، اعتبارية العلامة، العلاقات الترابطية... إلخ.

وإذا تحدثنا عن تشومسكي استعملنا مصطلحات مغايرة تدل على مفاهيم مختلفة مثل: الملكة والإنجاز البنوية العميقة والبنية السطحية، التوليد، والتفريع، الإبداعية... إلخ.

ويختلف ذلك عندما نتحدث عن عبد الرحمن الحاج صالح مثلاً: حيث يبرز جهاز اصطلاحي بمنظومة مفاهيمية عربية لها خريطتها المعرفية بحدودها الفاصلة، المحققة لأصالة العربية في نظرية عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية. ههنا تكمن الفائدة من التراكم المعرفي، وتتحقق في التأسيس للنظر الجديد.

إن التراكم ليس ركاماً كما عبر عنه بعض الدارسين الذين يودون السير في الطريق إلى تأسيس نظرية لسانية جديدة.

7- ينظر: بشير إبرير وآخرين: مفاهيم التعليمية بين التراث والدراسات اللسانية الحديثة، المرجع السابق، ص 213-214، وعبد الكريم غريب: المنهل التربوي، المرجع السابق، ص 953-954.

إن التراكم المعرفي ليس عشوائياً؛ إنه نسق ونظام من الناحية الفكرية والمنهجية، يحتاج إلى سعة في الرؤيا، ووعي نقدي وقدرة عالية عليه، وتمكن لغوي يستوعب المفاهيم ويتصورها ويحللها ويعرف العلاقات بينها ثم يعيد صياغتها الصياغة المناسبة التي يستدعيها مقام المعرفة.

وهكذا يختلف التراكم عن الركام الذي يوحى -في نظري- بالعشوائية وعدم التناسق والترابط والانسجام. وكان مستعمله أو مستعملوه لم يتجاوزوا المعنى المعجمي الجاهز المحدود.

لا يمكن السير في طريق التأسيس إلى نظرية جديدة في أية معرفة إذا لم يتم إحترام الإشارات المنظمة للمرور ضماناً للسلامة من الأخطار.

3- مدى انطباق خصائص النظرية وشروطها على التوجه اللساني لعبد الرحمن الحاج صالح:

إن جملة الخصائص والشروط اللازم توفرها في النظرية لتكتسب قيمتها العلمية، ويحق لمن تبناها أن يتحدث عنها، رأيها قد توفرت في:

3-1- التوجه اللساني الذي يخص عبد الرحمن الحاج صالح:

وهو توجه فريد يتميز به عن غيره من نواحي كثيرة، وهو الذي سمّاه النظرية الخيلية الحديثة، وهي نظرية لسانية عربية أصالية ذات هوية متجذرة في تراثها العلمي اللغوي، ومنفتحة على اللسانيات الغربية أيضاً.

فقد تمثل عبد الرحمن الحاج صالح من الناحية المعرفية التراث اللغوي العربي وأدركه، ثم قدمه في شكل تمثيلات عامة في إطار منظور فكري محدد، وضمّنه عدداً كبيراً من التعريفات الخاصة بالقضايا المدروسة في الصوت والصرف والمعجم النحو والدلالة والبلاغة.

وقد ارتبط ذلك كله في نسق من المفاهيم والقوانين ذات البعد الاستمولوجي الواضح المتعلق بدراسة المعرفة اللسانية العربية القديمة، المتمثلة في تراث الخليل وسيبويه، ومن جاء بعدهما من العلماء الأجلاء، الكاشف عن الأسس والمبادئ الواضحة المصحّح بها، والخفية المستترة، الكامنة خلف الخطابات المؤطرة لها.

ويتعلق أيضاً باللسانيات الغربية وفهمها ونقدها وتبيين أسسها ومبادئها الظاهرة والمستترة، وتوضيح الإيجابي والسلبي فيها، واستخلاص القيمة الاستمولوجية منها.

فلا تخلو كتب عبد الرحمن الحاج صالح من البعد الاستمولوجي المعرفي؛ وإنما هي مؤسسة عليه وتتميز به وبخاصة كتابه: "منطق العرب في علوم اللسان" الذي يعد -في نظري- ثورة استمولوجية خالصة.

فإذا أخذنا كتبه الأربعة على سبيل التمثيل وهي: "السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة" و"منطق العرب في علوم اللسان" و"البنى النحوية العربية" و"الخطاب والتخاطب" وتتبعناها كتاباً كتاباً، وكيف حضر

ففيها أعلام التراث اللغوي العربي إلى جانب الخليل وسيبويه بوصفهما الرمز الجامع لكل علماء التراث فإننا نجدها كمايلي،
علما أننا سنقتصر على عينة منهم فقط.⁽⁸⁾

الرقم	العالم	الكتاب	السمع العلمي اللغوي ومفهوم الفصاحة	منطق العرب في علوم اللسان	البنى النحوية العربية	الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية	المجموع
1	سيبويه	ت 180 هـ	95 مرة	189 مرة	176 مرة	142 مرة	602 مرة
2	الخليل	ت 170 هـ	26 مرة	78 مرة	53 مرة	24 مرة	181 مرة
3	ابن جني	ت 392 هـ	18 مرة	48 مرة	39 مرة	25 مرة	130 مرة
4	المبرد	ت 286 هـ	24 مرة	23 مرة	35 مرة	26 مرة	108 مرة
5	ابن السراج	ت 316 هـ	05 مرات	50 مرة	27 مرة	24 مرة	106 مرة
6	أبو عمرو بن العلاء	ت 154 هـ	65 مرة	18 مرة	00	01 مرة	84 مرة
7	الرماني	ت 386 هـ	02 مرتان	22 مرة	25 مرة	20 مرة	69 مرة
8	الجاحظ		28 مرة	12 مرة	09 مرات	17 مرة	66 مرة

8- ينظر: بشير إبرير : اللسانيات العربية وأبعادها المعرفية في كتابات عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية، ط1، منشورات الجزائري
للغة العربية، الجزائر، 2021، ص 125 - 126.

					ت 255 هـ	
64 مرة	00	00	10 مرات	54 مرة	الأصمعي ت 216 هـ	9
63 مرة	22 مرة	23 مرة	17 مرة	01 مرة	السيرافي ت 386 هـ	10
62 مرة	15 مرة	10 مرات	19 مرة	18 مرة	الأخفش سعيد بن مسعدة ت 215 هـ	11
54 مرة	05 مرات	01 مرة	23 مرة	25 مرة	الفراء ت 207 هـ	12
49 مرة	17 مرة	17 مرة	15 مرة	00	الرضي الأسترياذي ت 684 هـ	13
46 مرة	10 مرات	18 مرة	15 مرة	03 مرات	الزجاجي (أبو القاسم) ت 349 هـ	14
38 مرة	00	00	04 مرات	34 مرة	ابن السكيت ت 244 هـ	15
37 مرة	23 مرة	07 مرات	01 مرة	06 مرات	عبد القاهر الجرجاني ت 474 هـ	16
36 مرة	01 مرة	00	11 مرة	14 مرة	يونس بن حبيب ت 182 هـ	17

18	أبو علي الفارسي ت 377 هـ	05 مرات	14 مرة	8 مرات	06 مرات	33 مرة
19	الكسائي ت 189 هـ	12 مرة	20 مرة	01 مرة	00	33 مرة
20	الفارابي أبو نصر ت339 هـ	03 مرات	21 مرة	01 مرة	04 مرات	29 مرة
21	بن قتيبة ت276 هـ	13 مرة	04 مرات	00	04 مرات	21 مرة
22	ابن سلام الجمحي ت 232 هـ	14 مرة	07 مرات	00	00	21 مرة
23	ابن كيسان ت 320 هـ	02 مرتان	07 مرات	03 مرات	02 مرتان	14 مرة
24	الزجاج ت 310 هـ	04 مرات	05 مرات	01 مرة	02 مرتان	12 مرة
	المجموع	481 مرة	633 مرة	454 مرة	390 مرة	1958 مرة

إذا تأملنا هذا الجدول وحاولنا استنتاجه فإنه يبيح بجملة من الأسرار الكامنة في القيم الإحصائية المختلفة: فمثلاً: القيمة الإحصائية الخاصة بسيبويه تمثل الذروة في عدد المرات التي عاد فيها الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح إلى الكتاب، وهي 602 مرة في الكتب الأربعة.

وهذا يعني أن الكتاب يمثل المدونة اللغوية العلمية التراثية الأولى التي تأسس عليها علم العربية أو اللسانيات العربية من الناحية الاستمولوجية. مضافاً إلى ذلك القيمة الإحصائية الخاصة بالخليل بن أحمد وهي 181 مرة بالإضافة إلى المرات العديدة التي عاد فيها سيبويه إلى استاذة الخليل مما لم يتم إحصاؤه، ولكنه يرفع منسوب القيمة الإحصائية للخليل إلى جانب سيبويه في التأسيس للنظرية اللسانية العربية عند الحاج صالح.

كما حقق كل من ابن جني وابن السراج والمبرد وأبو عمرو بن العلاء والرماني قيما إحصائية مرتفعة في التأسيس لهذه النظرية.

وإذا كان هؤلاء إلى جانب سيبويه والخليل قد مارسوا حضورهم بكثافة في الكتب الأربعة، فإن علماء آخرين قد حضور بكثافة في كتاب محدد أو كتابين: فأبو عمرو بن العلاء قد حضر في: "السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة" 65 مرة، والأصمعي 54 مرة والجاحظ 28 مرة والفراء 25 مرة وابن السكيت 34 مرة وعليهم أقيم صرح هذا الكتاب المهم من الناحية المعرفية إلى جانب العلماء الآخرين كل بقدر.

ونلاحظ أن عبد القاهر الجرجاني قد تواتر في كتاب: "الخطاب والتخاطب" في نظرية الوضع والاستعمال العربية، 23 مرة بالنظر إلى الكتب الثلاثة الأخرى، وهذا راجع إلى أنه قد اهتم بنظرية النظم التي هي نظرية في تحليل الخطابات والنصوص، ويعد عبد القاهر واحدا من المؤسسين لهذا النوع من الدراسات في التراث اللساني العربي.

والملاحظ أيضا أن هؤلاء العلماء ينتمون إلى القرن الثاني والثالث والرابع الهجريين، كما يلي:

- أبو عمرو بن العلاء، والخليل وسيبويه ويونس بن حبيب والكسائي من القرن الثاني الهجري.
- والفراء والأخفش سعيد بن مسعدة والمبرد وابن السكيت وابن سلام الجمحي وابن قتيبة والأصمعي والجاحظ من القرن الثالث الهجري.
- والزجاج وابن السراج وابن كيسان والفارابي والرماني والسيرافي وأبو علي الفارسي وابن جني من علماء القرن الرابع الهجري.
- وعبد القاهر الجرجاني من علماء القرن الخامس الهجري.
- والرضي الاسترأبادي من علماء القرن السابع الهجري وكثيرا ما يثني عليه الحاج صالح ويصفه بخليل عصره.

فأغلب العلماء العرب القدامى من الذين يمثلون أصالة النحو العربي في القرون الأربعة الأولى من الهجرة مضافا إليهم علماء آخرون لم يتم ذكرهم في هذا الجدول.

لقد تكررت أسماء هؤلاء العلماء في كتب الحاج صالح الأربعة كما يلي:

- 481 مرة في: السماع العلمي اللغوي عند العرب ومفهوم الفصاحة.
 - و633 مرة في: منطق العلماء العرب في علوم اللسان.
 - و454 مرة في: البنى النحوية العربية.
 - و390 مرة في: الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية.
- وبمجموع عام يقدر بـ 1958 مرة.

بناء على هذا يمكن القول: أنّ هناك معاشية مباشرة من الحاج صالح لعلماء التراث اللغوي العربي قراءة وبحثاً بصبر وثبات ورؤيا نقدية استبصارية أسس من خلالها أهم مفهوم من المفاهيم في النظرية اللسانية العربية وهو: مفهوم الأصالة؛ إذ يوجد فرق بين التراث العربي الأصيل عند العلماء الأولين في القرون الأربعة من الهجرة، وبين الذين جاؤوا بعدهم من المتأخرين الذين كما قال الحاج صالح: عملوا على «تطويل المختصرات، واختصار المطولات، ونظم المتون شعراً، وكثرة الشروح والحواشي على المتن الواحد»⁽⁹⁾.

ينبه عبد الرحمن الحاج صالح إلى أن مفهوم الأصالة لا يعني القدم، ولا يقابل مصطلح حداثة La modernité فذلك طرح سطحي «وبدون ما تقتضيه الموضوعية العلمية»⁽¹⁰⁾.

إن الأصيل هو المبدع الذي يأتي بالجديد سواء أعلق الأمر بالتراث اللغوي العربي القديم أو تعلق باللسانيات الغربية.

يقول: «والأصالة في زمننا هذا هي الامتناع عن تقليد الغربيين خاصة»⁽¹¹⁾.

إنّ من أهم الشروط اللازم توفرها في النظرية أن تكون أصيلة تُسجّل باسم مبدعها. ولقد استطاع عبد الرحمن الحاج صالح تحديدها عند علماء العرب السابقين في التراث العلمي اللغوي عند النحاة والفقهاء وعلماء الأصول والمتكلمين والفلاسفة وعلماء القراءات والبلّاعيين. واستفاد من تراكمهم الفكري وبنى عليه اقتراحه لنظرية جديدة هي النظرية الخليلية الحديثة التي تبرز من خلالها أصالة اللغة العربية وأصالته بوصفه منظراً لسانياً له قيمته العلمية والمعرفية.

لا يعني هذا أنه ينتصر للتراث العربي هكذا بلا وعي مثلما يشيع بعض الهامدين الخامدين الذين لم ينتجوا شيئاً، وإنما يفتح على البحث اللساني الغربي بكفاية ودراية وبمعرفة لغوية فعالة بالإنجليزية والفرنسية وهذا ما يحسب له. يتجلى ذلك في دعواته المتكررة إلى المزاوجة في الاهتمام بين التراث اللساني العربي والبحث اللساني الغربي، وبقراءتهما قراءة نقدية واعية بخلفياتهما المعرفية والمقارنة بينهما مقارنة علمية موضوعية.

نقرأ ذلك في قوله:

« وقد أيقنا أن الدراسات اللغوية لن يكون لها شأن إذا لم يعد أصحابها إلى الخليل بن أحمد، ويحاولوا أن يتفهموا ما قصده هذا الرجل العبقرى بتعليقاته لظاهرة اللغة، وذلك بالرجوع أولاً إلى كتاب سيبويه وشروحه. وبالرجوع

9- عبد الرحمن الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، ص 24.

10- عبد الرحمن الحاج صالح: الأصالة والبحوث اللغوية الأصيلة، ضمن كتابه: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص 11.

11- المرجع نفسه، ص 11، وينظر أيضاً: بشير إبرير: اللسانيات العربية وأبعادها المعرفية في كتابات عبد الرحمن الحاج صالح، ص 130-131..

ثانياً إلى من أدرك مقاصده حق الإدراك مثل: ابن السراج، وأبي علي الفارسي، وابن جني، وذلكم العالم الفذ الرضي الاسترابادي.

ويا حبذا لو درسوا في الوقت نفسه نظريات علم اللسان الحديث؛ لأنه فيها من المعاني والمفاهيم، لو تدبروها، لوجدوها شديدة الشبه بما يجدونه في الكتب القديمة، وربما ساعدتهم على إدراك ما لا يزال غامضاً لديهم من نظريات النحو العربي، إذ أن المصطلحات العربية القديمة قد تنوسيت معانيها الدقيقة في غالب الأحيان»⁽¹²⁾.

هذا نص طويل لعبد الرحمن الحاج صالح يوضح فيه دعوته إلى الانفتاح على اللسانيات الغربية والاستفادة

منها.

وبالرجوع إلى كتبه الأربعة المذكورة سابقاً وجدناه يعود إلى العلماء الغربيين المشهورين كلما دعت الضرورة إلى

ذلك. وهو ما يوضحه الجدول التالي:

الرقم	اسم العالم	عدد التكرارات في الكتب الأربعة
1	أرسطو طاليس	134 مرات
2	تشومسكي	29 مرة
3	دوسوسير	26 مرة
4	أندري مارتيني	20 مرة
5	شارل ساندرس بيرس	11 مرة
6	أد البيرمركس	10 مرة
7	إميل بنفينيست	10 مرة
8	ليونارد يلومفيلد	09 مرات
9	لويس ماسينيون	08 مرات
10	جون غانيوبان	07 مرات
11	فينسوس التراقي	07 مرات
12	جيمس هاريس	05 مرات
13	بول غرايس	05 مرات

12- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، ص 10، وينظر: بشير إبرير: المرجع السابق، ص 110-

14	بايك	K.Pike	04 مرات
15	مايكل هاليدي	M.Halliday	03 مرات
16	لويس هيلمسلاف	L.Helmslav	03 مرات
17	فرانسوا راسي	F.Rastier	02 مرتان
18	غريماس	Grimace	01 مرة
المجموع			375 مرة

هذه عينة من العلماء اللسانيين الغربيين الذين وظفهم الأستاذ الحاج صالح في كتبه الأربعة المذكورة سابقا.

فقد مارس أرسطو حضوره بكثافة بـ 134 مرة منها 111 مرة في كتاب "منطق العرب في علوم اللسان"؛ لأن الموضوع اقتضى ذلك، بحديثه عن النحو العربي ومنطق أرسطو، وتفنيده آراء أدالبير مركس بالدليل والبرهان والحجة، بالرجوع إلى آراء أرسطو التي أوردها أدالبير، وبالرجوع إلى أدالبير مركس نفسه، ومناقشة أقواله عن تأثير المنطق الأرسطي في النحو العربي وإبطالها، والتأكيد على أن النحو العربي أصيل أصالي في القرون الأربعة الأولى من الهجرة.

كما حضرت آراء دوسير وتشومسكي وأندري مارتينه وبلومفيلد، وبنفينست ولويس ماسينيون وجون غانيوبان في هذه الكتب الأربعة مع العلم أننا استثنينا كتبه الأخرى ورسائله للدكتوراه، وأبحاثه ومقالاته بالعربية، وما كتبه بالإنجليزية والفرنسية.

يدل هذا على أن عبد الرحمن الحاج صالح في نظريته للسانيات العربية لم يقتصر على التراث اللغوي العربي وحده، وإنما زاوج بينه وبين اللسانيات الغربية ومن التفاعل الحاصل بينهما أبدع آراءه العلمية الأصيلة، مستندا في ذلك على تراكم معرفي نوعي جمع فيه بين التراث اللغوي واللسانيات الغربية الحديثة بنظر نقدي واصف للظواهر اللغوية المتنوعة فيهما.

2-3- ولهذه النظرية أيضا موضوع واضح للدراسة:

فلكي يكون العلم علما لا بد أن يكون له موضوع دراسة يخصصه: «إنه الدراسة العلمية للسان»⁽¹³⁾.

ثم يلفت الانتباه إلى عنصرين أساسيين في هذا التعريف هما:

-«العلم أو الدراسة الموصوفة به. ثم اللسان الذي هو موضوعها»⁽¹⁴⁾.

13- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علم اللسان، المرجع السابق، ص 21.

14- المرجع نفسه، ص 22.

ينظر عبد الرحمن الحاج صالح للسانيات العربية على أنها علم كلي يتجاوز أعيان الأشياء إلى القدر المشترك في كل منها؛ أي الأوصاف المستمرة التي يسميها العلماء العرب أصولاً⁽¹⁵⁾.

إن اللسانيات العربية هي العلم الذي يدرس اللسان العربي دراسة علمية موضوعية، من حيث الوضع والاستعمال، والألفاظ ومعانيها في كل من الوضع والاستعمال، دون الاقتصار على أحدهما وترك الآخر، أو الخلط بينهما، وإنما لكل منهما مقتضياته وخصوصياته⁽¹⁶⁾.

يعني هذا أنّ اللسانيات العربية la linguistique de la arabya⁽¹⁷⁾. كما سمّاها الحاج صالح لا تنحصر في الشكل واللفظ الدال؛ وإنما يكمن موضوعها في الحديث وفي فعل التحدث في الوقت نفسه، أي دراسة الوضع اللغوي المتعلق بقوانين البنية اللغوية في واقع الاستعمال وإجراءاته المتعددة حسب المقام ومقتضياته⁽¹⁸⁾.

وهكذا تكون اللسانيات العربية أشمل من اللسانيات العامة عند دوسوسير فقد تكلم سيويه عن الكلام المستغنى الذي يحسن السكوت عليه. يقصد الكلام المفيد⁽¹⁹⁾.

وهو «أقل ما يكون عليه الخطاب إذا لم يحصل فيه حذف»⁽²⁰⁾. فأدخل -بذلك- المعنى في الدراسة اللغوية منذ القرن الثاني الهجري. وهو ما لم يتم إدراكه في اللسانيات الغربية إلا في السنين الأخيرة مع الدراسات التداولية والمعرفية⁽²¹⁾.

3-3- لها بعد منهجي إجرائي في الدراسة:

يمكن تلخيصه في المتتالية الفعلية الآتية: فعبد الرحمن الحاج صالح صاحب النظرية قد استقرأ وعاین وتتبّع واستنتج واستنبط.

ووصف وصنف وأحصى وشرح وحلل وفسّر وأوّل. وقدّم الحجّة والبرهان وأقام الدليل، وأكثر من الأمثلة الموضّحة.

ويتأسس هذا كله على صياغته لمنظومة ضخمة من المفاهيم اللسانية والمصطلحات الدالة عليها تسترعي النظر وتجلب الانتباه؛ وأهم ما يميز النظريات العلمية منها النظرية اللسانية أن تبني على مفاهيم تخصها ومصطلحات تعبر

15- المرجع نفسه، ص 24.

16- بشير إبرير: المرجع السابق، ص 117.

17- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علم اللسان، المرجع السابق، ص 118.

18- ينظر: بشير إبرير: المرجع السابق، ص 117.

19- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح: الجملة في كتاب سيويه، مجلة المبرز، 1993، عدد 2، ص 10.

20- المرجع نفسه، ص 10.

21- ينظر: بشير إبرير: المرجع السابق، ص 118.

عنها. ونرى هذا قد توافر بكفاية في نظرية عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية المسماة: "النظرية الخليلية الحديثة" نسبة إلى الخليل بن أحمد العلامة المميزة في التراث اللغوي العربي.

فالرجل فقيه بالمصطلح له سعة رؤيا وبعد نظر وعمق قراءة واستبصار.

ويجد القارئ لكتابات اللسانية طريقة خاصة به، فعالة في الاشتغال على المفاهيم بالمفاهيم والقدرة على صياغتها وإعادة بنائها وحسن توظيفها واستثمارها في البحث اللساني.

من ذلك مثلا: مفهوم الاستقامة - الباب - المثال - الموضع - الوضع - الاستعمال - الأصل - الفرع - السماع - القياس - قسمة التركيب - وضع - مواضعة - أوضاع اللغة - عامل - معمول - مبني - مبني عليه - مسند - مسند إليه - لفظة - لفظة إسمية - لفظة فعلية - الجسّ والنظر - أطراد - اتساع - علم المخاطب - الإجراء على الموضع - حد - ما جرى من الذكر - مقام - استحسان - مجاري الكلم - بنى نحوية - علامة عدمية - صوت - علم العربية. وهو المفهوم الذي تأتلف حوله كل المفاهيم المتعلقة بالنظرية اللسانية العربية عند الحاج صالح.

هذه المفاهيم ومصطلحاتها قد نشأت وترعرعت في بيئة اجتماعية معرفية محددة لها خصوصياتها اللغوية والروحية، وهي مسألة لها اعتبارها في الدراسة، كثيرا ما تستعصي على الباحثين في فهمها وإدراكها؛ لأنها تحتاج إلى تمكن لغوي وحدة ذهن وقوة خاطر وقدرة على التصور.

4-3- ولها مستويات ومراتب في التحليل:

تشمل: الأصوات والمعجم والصرف والتركيب والدلالة والبلاغة والخطاب؛ أي أنها تبدأ من: الصفات المميزة بالحروف والدوال فالكلم أو الكلمات فاللفظات فأبنية الكلام أو البنى التركيبية وقد خصص عبد الرحمن الحاج صالح كتاباً مستقلاً لها، عنوانه: "البنى النحوية العربية" فالحديث أو الخطاب، وقد خصص له هو أيضاً كتاباً مستقلاً عنوانه: "الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية" وهكذا يشمل التحليل اللساني في النظرية الخليلية جانبين اثنين هما:

- جانب بنوي شكلي: حسب ما تقتضيه القاعدة النحوية وتقبله.

- جانب خطابي إعلامي إخباري: تقتضيه مقامات التخاطب المتنوعة في قلب الحياة الاجتماعية.

5-3- ولها بعد وظيفي استثماري:

إذ أنّ هذه النظرية كان لها باحثون وما زالوا يعملون على توظيفها واستثمارها في ميادين عديدة، وقد أثبتت نجاعتها في التجارب والتطبيقات التي قاموا بها في ميادين: التعليم وصناعة المعاجم ووضع المصطلح وحوسبة اللغة...

وتوجد أمثلة كثيرة تؤكد ذلك وتصلح أن تكون بحثاً خاصاً.

وأكثر من ذلك أنها نظرية منفتحة على البحث فلا تتوقف عند تفسير ما معنى من الحوادث والظواهر اللسانية، وإنما من أهدافها أن تغطي الظواهر الحاضرة والمستقبلية ومن ثمة يمكن تعميمها.

4- خاتمة:

قرأ عبد الرحمن الحاج صالح التراث اللغوي العربي قراءة نقدية، عميقة بمنهج علمي واضح، وبتحرج علمي وموضوعي.

وكذلك الأمر للسانيات الغربية، وأبان على قدرته على النقد اللساني الموضوعي بعيدا عن النظرة الانبهارية بالآخر.

فانتصر للتراث فيما وجب ووجه له النقد فيما وجب وكذلك الشأن للسانيات الغربية وقضاياها المتعددة.

ويحق لبعد الرحمن الحاج صالح أن يوصف بأنه صاحب نظرية لسانية عربية أصيلة في مبادئها وأسسها المعرفية، وفي موضوعها ومنهجها وإجراءاتها التطبيقية، وفي ميادين توظيفها واستثمارها.

هذا لا يعني أنّ الرجل فوق النقد، ولا نعدده كذلك؛ وإنما للنقد شروط منها: أن يكون الناقد في مستوى علمي يكافئ المنقود أو يفوقه في بعض المسائل على الأقل الخاصة بميدان بحثه تمكنه من تعديل المعرفة أو الإضافة إليها. أما النقد من أجل النقد فلا نراه حقيقيا بأن يصح.

وإذا كان الحاج صالح قد توفاه الله سبحانه وتعالى، وسيتوفانا جميعا، فإنّ هناك باحثين تركهم بعده، لا شك في أنهم سيبدلون جهودا كبيرة في التعريف بالنظرية الخليلية الحديثة، والشروع في تطبيقها وتدريبها للطلبة.

5- قائمة المراجع:

➤ قائمة الكتب باللغة العربية:

- 1- بشير إبرير: اللسانيات العربية وأبعادها المعرفية في كتابات عبد الرحمن الحاج صالح اللسانية، ط1، منشورات الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2021.
- 2- بشير إبرير وآخرين: مفاهيم التعليمية بين التراث والدراسات اللسانية الحديثة، مطبوعات مخبر اللسانيات واللغة العربية، جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، 2009.
- 3- ريمون وليمز: الكلمات المفاتيح، ترجمة: نعيमान عثمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، المجلس الأعلى للثقافة والفنون في مصر، ط1، 2007.
- 4- عبد الرحمن الحاج صالح: الأصالة والبحوث اللغوية الأصيلة، ضمن كتابه: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، مطبوعات المجمع الجزائري للغة العربية، 2007.
- 5- عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مطبوعات المجمع الجزائري للغة العربية، 2007.
- 6- عبد الرحمن الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، مطبوعات المجمع الجزائري للغة العربية، 2010.
- 7- عبد الكريم غريب: المنهل التربوي، معجم موسوعي في المصطلحات والمفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية، والسيكولوجية، الجزء الثاني، ط1، منشورات عالم التربية، الدار البيضاء، 2006.

➤ قائمة المجالات:

- 1- عبد الرحمن الحاج صالح: الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز، عدد2، 1993.

➤ مواقع الأنترنت:

- 1- <[https:// mawdoo3.com](https://mawdoo3.com)
- 2- ar.ar<<https://www.almaany.com>